لا يحسّ بها لكي يعلل بعض ما يقع في عالم الحس فهل يجوز ذلك اي هل يحقّ لنا ان نفرض وجود موجودات لا تدرَك بالحس او نقتصر على ما يدرك بالحس . وهل نقول ما قالهُ دي بوا ريموند في الكلام عن المادة والقوة وهو ان حقيقتهما لا تدرك او نقول ما قالهُ هيكل وهو انهُ ليس في الطبيعة ما لا يمكن ادراكهُ ذلك وامثالهُ من المسائل التي تحل بالبحث عن اصل المعارف . وهذا البحث يمهد السبيل للفلسفة العقلية وما وراء الطبيعيات ويطلع الباحث المدقق على ما يزجى في فروع العلوم من كل رأي فطير . وكثيرًا ما نرى العالم الطبيعي يهزأ بالفيلسوف مستعملاً عبارات وادلة لم يعرفها لولا الفلسفة . ومثَل الفلسفة وعلماء الطبيعة في ذلك مثل الشيخ الذي حملهُ السندباد البحري على عاتقهِ من غير ان يشعر بهِ

وتاريخ الفلسفة يدلُّ على انها قد ارتقت ارتقاء بيّنًا وما وقع فيها من الخطإ يفيد الباحثين لانهُ يحذرهم من الوقوع فيهِ ثانيةً فان من يعرف السبيل الذي لا يوصل الى المطلوب يستفيد من معرفتهِ في اكتشاف السبيل الموصل اليهِ

(ترجمت للمقتطف من مقالة في جريدة العلم العام الاميركية للاستاذ فرنك تلي)

البانيا[1] او بلاد الارناؤوط

ليس في هذه الايام بلاد تهدّد دعائم السلم في اوروبا اكثر من البلاد الالبانية وهي قريبة من مراكز العمران يحدها الجبل الاسود شمالاً وبلاد اليونان جنوبًا ولها ساحل طويل يمتدّ على البحر الادرياتيكي المسمّى عند العرب ببحر البنادقة الفاصل بينها وبين ايطاليا ومع ذلك لا يُعرف عنها اكثر مما يُعرف عن مجاهل الصين لصعوبة التوغل فيها. قاعدتها مدينة اشقودره على بحيرة تسمى بهذا الاسم يوصل اليها بطريق مركبات تبتدئ من بلدة كطارو في دلماطيا مارةً بستينيا عاصمة الجبل الاسود الى ان تنتهي عند ريجكا من قرى هذا الجبل فينقل منها الى باخرة تعبر البحيرة الى اشقودره ويلزم لقطع هذه المسافة يومان على الاقل . ويمكن الوصول الى اشقودره من بلدة مدو وهي ثغر البانيا على الادرياتيك

وتنقسم بلاد البانيا الى مقاطعات صغيرة يسكنها قبائل من الارناؤوط . ويتعذر على السائح الدخول اليها لما في ذلك من الاخطار . والبلاد تابعة للدولة العلية وفيها حامية من

(١) معربة ببعض تصرف عن مقالة نشرها في احدى المجلات الانكليزية سائحان من الانكليز تجولا في بلاد البانيا الداخلية من عهد قريب وسطرا ما رأياهُ فيها مرأى العين

الجيش العثماني الاّ ان سلطة الحكومة فيها اسميَّة لا يعتدُّ الشعب بها وطبيعة البلاد تساعد اهاليها على عدم اتباع الاحكام والامتثال لها لانها جبال شامخة وعرة المسالك والسكان لا يهابون احدًا ولا قيمة عندهم للحياة وهم دائمًا مدججون بالسلاح يحسبون كل غريب يطأ ارضهم جاسوسًا ارسل ليطلع على مواقع الضعف فيها ويحرمهم الاستقلال

واشهر هؤلاء الاقوام قبيلة تدعى الغزينية تسكن سهلاً طويلاً ضيقًا يحيط بهِ سور من الجبال المنيعة اذا دخل ارضها غريبٌ فلا تدعهُ يخرج سالمًا . وهذه القبيلة لا تمنع الغريب من دخول ارضها ولكن لا تمر ساعة على وصولهِ حتى يجتمع مشايخها ويقرروا قتلهُ ثم يعينوا من ينفذ ذلك . ويلتزم الغريب ان يأخذ جوازًا من رئيس كل قبيلة لكي يتمكن من الجولان في داخلية البلاد الالبانية ويعين الرئيس رجلين او ثلاثة ليسيروا معهُ ويكونوا مسئولين عنهُ باموالهم وارواحهم اذا اتاهُ اذًى . وعند مبارحتهِ اراضي هذا الرئيس يفعل مثل ذلك مع رئيس القبيلة الثانية التي يجتاز ارضها وهذه الطريقة الوحيدة التي يمكن للغريب ان يسيح بها في هذه البلاد ما عدا بلاد الغزينية ومقاطعة اُخرى لا يسمح اهاليها للغريب في الدخول اليها ايًّا كان

وبلاد الغزينية واقعة على حدود الجبل الاسود وهي صغيرة لا يزيد عدد سكانها على عشرين الفًا الاّ انهُ اذا مس احد استقلالها بسوء في امكانها ان تجمع نحو ثمانية آلاف رجل من الاقوياء المسلحين ويتسارع حينئذٍ الرجال والاولاد والنساء الى حمل السلاح للدفاع عن الاوطان والذود عن الحرية التي يتمتعون بها . ويرسم اهل الجغرافية بلاد الغزينية على الخارطة كانها جزء من البانيا ولكنها في الحقيقة بلاد يسكنها قوم مستقلون بانفسهم لا يميلون الى احد ويفضلون الموت على تغيير شيء من حالتهم . وهم اكثر الالبانيين ميلاً الى سفك الدماء غدارون يقضون معظم ايامهم في مناجزة اهالي الجبل الاسود المجاورين لهم ومناوشتهم القتال وهم لا يقبلون غريبًا بينهم الاّ اذا كان جانيًا هاربًا من وجه العدالة فيعدون جنايتهُ كجواز لهُ . وبين بلادهم والجبل الاسود غابة كبيرة يختبيء بين اشجارها اربعة او خمسة من الاشقياء حتى اذا اقتربوا من حدود الجبل فكوا بمن اوقعهُ سوء طالعهِ بين ايديهم . وفي وسط هذه الغابة طريق الى الجبل الاسود مشهور بكثرة ما يقع فيهِ من حوادث القتل والسلب وعلى جانبيهِ كثير من الاحجار المنقوشة نصبت لتدل على الاماكن التي سقط فيها المسافرون الابرياء مقتولين بايدي هؤلاء الاشقياء . على ان هذا الطريق يعد من اهم طرق البلاد لانهُ الطريق الوحيد الذي يجتاز اراضي هذه القبيلة ولكن لا يمكن لمسافر ان يمر بهِ الاّ اذا كان مستصحبًا

نفرًا من الرجال شاكي السلاح وعلى غاية الانتباه والحذر لانهُ لا يُعلم من اي جهة تطلق الرصاصة التي تصوب اليهِ على حين غفلة . ولا يتوهمن القارئ ان اهالي الجبل الاسود يقاسون هذه الاهانات وهم صاغرون بل كثيرًا ما ينزلون هم ايضًا على بلاد الالبان ويأخذون بثار من قتل من مواطنيهم. وعوائد هذه القبائل واحوالها غريبة يسر الانسان الاطلاع عليها على ان ضيق المقام يحول دون اتساع الكلام عليها فلذلك نذكر القليل منها

ان لباس قبيلة الغزينية يشبه لباس بقية الالبانيين وهو سراويل بيضاء ضيقة مزينة بنقوش جميلة على اطرافها وتطريز اسود عريض ويعلوها قميص ابيض فوقهُ سترة صغيرة سوداء بنصف اكمام وكثيرًا ما يحملون في وسطهم ذخيرة من الرصاص وطبنجة وخنجرًا ويعلقون بندقية على كتفهم ويلفون على رأسهم قماشًا طويلاً ابيض ويلفونهُ حول رقبتهم كالعرب . وفي الصيف يبدلون السراويل الضيقة بسراويل واسعة من القطن وهذا لبس الطبقة السفلى على الدوام . وفي بعض المقاطعات الاخرى يختلف الزي قليلاً عن هذا فمنهم من يلف قماشًا ملونًا على رأسهِ ومنهم من يلبس طربوشًا ابيض تمييزًا لهُ عن المسلمين الذين يلبسون الطربوش الاحمر. واغلب سكان البانيا يدينون بدين النصرانية على مذهب كنيسة رومية وهم شديدو التعلق بهِ ويسمى الاتراك الذين اعتنقوا الاسلام من اهل الجبال ارنؤوطًا. وتساعد الدولة النمسوية الاكليروس الالباني مساعدة مالية كبيرة حتى تبسط بواسطتهِ نفوذها على البانيا وقد امست ايطاليا فيها عدة مدارس لتأييد نفوذها ازاء نفوذ النمسا واهم هذه المدارس ان لم يكن احسنها في اشقودره وعدا ذلك فلا مدارس في البلاد كلها ولا اثر للتعليم فيها حتى ان اللغة الالبانية نفسها ليس لها اجرومية لضبط قواعدها . واكثر الاهالي اميون

وقد روى السائحان الانكليزيان اللذان كتبا هذه المقالة انهما حضرا قداسًا أُقيم في الجبال تحت القبة الزرقاء وكان منظر الالبانيين عجيبًا مدهشًا فانهم لما جاؤوا للصلاة نزعوا عنهم سلاحهم وعلقوا بنادقهم على الاشجار وكانوا يركعون ويسجدون بكل خشوع امام هيكل بسيط نُصب امامهم مع انهُ كان بينهم نزاع وقتال وقبيل هذا الاحتفال بيومين قتل صبيان منهم عمر احدهما ١٥ سنة والآخر ١٦ سنة رجلاً رميًا بالرصاص على مسافة ٤٠٠ قدم . وهم اذا ارادوا قتل امرئ فلا يهابون احدًا . فيختبئون خلف صخرة ويطلقون الرصاص عليهِ واحيانًا يحزون رأس القتيل ويأتون بهِ الى منزلهم كعلامة انتصار ليشاهدهُ اقرباؤهم واصحابهم ويعجبوا ببسالتهم. ولا يستصعبون ذلك بل يعدونهُ من اسهل الامور عليهم

ولكل قبيلة رئيس تخضع لهُ ويعيش اعضاؤها سوية كعائلة واحدة لا يتنازعون فيما

بينهم ولكنهم كثيرًا ما يتقاتلون مع القبائل المجاورة لهم . ويفصل في المسائل الجزئية شيخ البلد وليس لهم سجون فاذا ارتكب احدهم جناية كبيرة ارسلهُ الرئيس الى تركيا ليسجن فيها . واذا كانت الجناية صغيرة حكم على الجاني بالوقوف تحت شجرة او في زريبة البقر مدة تختلف من ساعة الى خمسة عشر يومًا . وهذا العقاب يشابه كثيرًا الاقتصاص من الاولاد في المدارس

وقد يجتهد الحكام الاتراك احيانًا بتأييد سلطتهم على هذه القبائل ولكن بلا جدوى كما ترى من الحادثة الآتية . وهي ان رجلاً من الالبان ضبطهُ رجال الحفظ في احدى المدن لقتلهِ آخر فأُرسل الى السجن ليعاقب على ما جنتهُ يداهُ فنزلت من الجبال عصابة من قبيلتهِ واخبرت الوالي انهُ اذا لم يطلق سراحهُ ويرجعهُ معها في مدة اربع وعشرين ساعة تهجم القبيلة كلها على البلد وتحرقها فامتثل الوالي وافرج عن رفيقهم . والالبان معفون من الخدمة العسكرية لا تأخذ الدولة جندًا منهم ولكن اذا حدثت حرب يقدمون انفسهم للخدمة متطوعين

ومن عوائد اهالي هذه البلاد الاخذ بالثار وهو شائع عندهم شيوعًا كبيرًا فاذا قتل رجلٌ واحدًا من قبيلتهِ او من قبيلة أُخرى والتجأ حالاً الى منزل اقرب قريب للقتيل وشرح لهُ واقعة الحال وجب على هذا القريب حماية الجاني ما دام تحت سقف بيتهِ وعليهِ ايضًا ان يوصلهُ بسلام الى حدود اراضي القبيلة ولكنهُ يقول لهُ عند ما يفترق عنهُ ان حمايتهُ لهُ قد انتهت الآن فيحق من بعد ذلك لاقارب المقتول قتل الهارب في اي مكان وجدوهُ حتى ولو بعد مضي سنين ولا ينجو ابنهُ او حفيدهُ بل يؤخذ منهم بثار من قُتل . في بعض الاحيان يجوز للقاتل ان يدفع دية المقتول وهي تختلف من مئتي جنيه الى الف جنيه حسب منزلة القتيل ولكن الصلح الذي من هذا القبيل لا يخلو من خطر ولو كان كلام الشرف عند الالباني ضمانًا على صدقهِ

واذا قتل رجل آخرَ من قبيلة مجاورة لقبيلتهِ فلا يفتش اقارب القتيل واصحابهُ عن القاتل نفسهِ بل يقتلون حالاً اي شخص يلقونهُ من عائلتهِ او قبيلتهِ ولكن اذا اعان القاتل المقتول فلا ينجو حينئذٍ من القصاص مهما فعل واذا هرب فيؤخذ الثار من اقرب اقاربهِ وقد يحدث مرارًا ان القاتل لا يهرب مع علمهِ انهُ سوف يقتل لكي لا يقع حيف على اقاربهِ

روى كاتبا هذه المقالة خبرًا من هذا القبيل شاهداهُ باعينهما قالا

كنا نجول يومًا في احدى المقاطعات الالبانية فطرق آذاننا بغتة صوت اطلاق البنادق ثم رأينا الفلاحين الذين كانوا يعملون في حقولهم قد حملوا بنادقهم التي لا تفارقهم ابدًا وجعلوا يركضون نحو غابة مجاورة وهم يحشون بنادقهم بارودًا وبعد قليل ابصرنا رجلاً يسرع الينا ويستنجد بنا ولم يكن الاَّ كلمح البصر حتى احاطت بنا شرذمة من الالبان وهم مدججون بالاسلحة يصيحون

ويصخبون فما زلنا نلاطفهم ونلاينهم حتى خلّصنا الرجل منهم وكان شابًّا بهي الطلعة وحكايتهُ كما اخبرنا هي ان امرأة متزوجةً احبتهُ فلم يعبأ بها فتهددتهُ بكسر مغزلها امامهُ اذا لم يحبها وذلك يعد عند النساء الالبانيات اكبر شيء تهدد بهِ المرأة الرجل الذي يرفض حبها او يهينها ومعناهُ انها سوف تقتلهُ بيدها او تسلط رجلاً آخر عليهِ . فلما لم يرَ بدًّا من اجابتها اختار اهون الشرين وحملها الى منزلهِ ومن ذلك اليوم صارت حياتهُ تحت الخطر لان زوجها من اهل اليسار ولما رآها هربت مع عشيقها اعلن انهُ يعطي مبلغًا وافرًا من المال لمن يأتيهِ برأسهِ فكثر طالبي هذا المسكين والالبانيون لا يستكبرون قتل رجل بريء فكيف يكون حالهم اذا علموا ان من وراء عملهم مغنمًا فبينما كان يشتغل في حقلهِ اطلق عليهِ رجل بندقيتهُ فقابلهُ بالمثل فرماهُ جريحًا وهرب الينا ومن بعد ما قصَّ علينا حكايتهُ اخذنا العجب لما رأيناهُ راجعًا الى منزلهِ ولم يطلب منا الاَّ بندقية جديدة وبارودًا حتى يمكنهُ على الاقل ان يدافع عن نفسهِ لان بندقيتهُ كانت قديمة ولم يكن معهُ الاَّ قليل من الذخيرة

ولما سألناهُ ان يبقى معنا اجابنا كيف يمكني ان اهرب واخوتي يعيشون هنا ويملكون حقولاً واراضي فاذا هربت يقتلونهم لا محالة فتعجبنا من شجاعتهِ وشهامتهِ ولا بد ان يكون قد لقي حتفهُ الآن . وامثال هذا كثيرون في هذه البلاد لا يعلمون في اي ساعة يلقون حتفهم وعوضًا عن ان يهربوا ويعرّضوا اقاربهم للخطر تراهم يلبثون في منازلهم ينتظرون الموت بقلوب واجلة وعيون شاخصة

ومن غريب تلك العوائد ان النساء على انحطاط منزلتهن عند الالبانيين تراهم يحترمونهنَّ كثيرًا في مسألة الثار وقتل المرأة يُعدُّ عندهم جناية لا تغتفر وعارًا على القبيلة يلزم ازالتهُ بكل الوسائل حتى ان المرأة اذا وقفت الى جانب زوجها فلا يمكن لاحد ان يطلق عليهِ بندقيتهُ خوفًا من ان يصيبها بسوء

واشقودره عاصمة البلاد الالبانية تحتوي على نحو اربعين الف نسمة جلّهم من المسلمين وبها حامية كبيرة من الجند الشاهاني وهي مقسومة الى قسمين قسم يسكنهُ الافرنج وقناصل الدول ويدعى حيَّ القناصل وقسم يسكنهُ الوطنيون ويدعى حيَّ الاسواق ولا يسمح للالبان سكان الجبال دخول المدينة الاَّ اذا كانوا عزلاً من السلاح فترى الذين يؤمونها منهم يوم السوق يسيرون في الازقة وليس عليهم سوى حزام فيهِ الخرطوش

ويصادف الغريب الذي يقدم هذه المدينة صعوبات جمة من العمال الاتراك الذين يؤشرون لهُ على ورق جوازهِ ما لم يكن قادمًا من جهة الجبل الاسود بطريق البحيرة وفي عزمهِ مبارحة

البلدة حالاً . وكذلك ينتش عمال الجمارك القادم بكل شدة ولكن يمكن تخفيف ذلك ببعض دريهمات يعطيها المسافر للعامل وتمنع الدولة ادخال الاسلحة الى هذه البلاد ومع ذلك ترى كل واحد من الايان يحمل السلاح وهذا من الغرائب

والقسم الذي يسكنهُ الاجانب نظيف مرتب منظم خلافاً لحي الاسواق فان طرقهُ معوجه وتكثر فيهِ الاقذار كما هو الحال في اغلب المدن الشرقية

ويتيم في اشقودره اسقف البانيا الكاثوليكي وفيها كنيسة كاتدرائية كبيرة

وستنتهي المسئلة البلقانية يوماً الى نزع الاستقلال النوعي الذي تتمتع بهِ البانيا الآن ولكن الدولة التي تكون هذه البلاد نصيبها تصادف صعوبات في اخضاعها اكثر مما لاقت النمسا في اخضاع البوسنه والهرسك. ونفوذ النمسا الآن عظيم بواسطة الكنيسة ولهذا السبب قد عينت لها في اشقودره قنصلاً جنرالاً وقنصلاً ووكيل قنصل

توفيق كلداني

عروسة النيل

الفصل السادس والعشرون

كان مضجع اوربون تلك الليلة مضجع العاشق الواله يطارد فيهِ الوجدُ الكرى ويهزم الحنين الراحة فظلَّ يتقلب على مثل شوك القتاد حتى انشقَّ الفجر فنهض وارتدى ثيابهُ وركب جوادهُ وسار يطلب النسطاط ليُودِع صالحاً اخا هاشم التاجر نصف مال باولين عملاً بما اتفقوا عليهِ وكان الطباق بين المدينتين مدينة الفراعنة وعاصمة العرب على اتمهِ فبدت هذه بمظاهر النشاط والشباب وانزوت تلك وعليها امارات الضعف والانحطاط والشيخوخة حتى خيل لاوربون ان منف جثة محنطة في العدوة الواحدة والنسطاط شاب في مقتبل العمر وشرخ الشباب في العدوة الاخرى . واكبر ما رأى في وجوه العرب من سيماء النجابة والنشاط فانَّى التفت ابصر عيوناً ينبعث منها الذكاء وحدَّة الذهن ووجوهاً ارتسمت فيها البسالة والاقدام وانوفاً شماء ابى اصحابها الاَّ الانتصار على المصاعب وتذليل العقبات فسار في الشوارع المزدحمة بالخلق حتى وصل الى حانوت صالح فترجل ودخل يتبعهُ نياس خازنهُ وفيها هما هناك ابصر عبادة بين المارَّة فحيَّاهُ هذا تحية الصديق فردَّ اوربون التحية باحسن منها لكنَّ انقباضهُ من الرجل عاودهُ وخطر ببالهِ ما قالهُ عمرو. وعاد عبادة فمرَّ بهِ ثانية وثالثة فادرك اوربون انهُ لامرٍ ما يفعل ذلك لكنهُ لم يكد يخرج ما جاء لاجلهِ حتى نسي عبادة ولما قضى غرضهُ رجع الى منف وسار توًّا الى البيت فرأى